﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١١١﴾ [يوسف: 111]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مُناسبةُ الآيةِ الأخيرةِ مَطلعَ السّورةِ الكريمةِ في ذكْرِ القَصصِ والاعتبارِ منها

بعد أن ذَكَرَ في الآيات السّابقةِ قصصَ السّابقين منَ المُرسَلين، وما يجمعُهُم مع أقوامِهم من مَواقِفَ ثابتةٍ، ثُمَّ ذَكَرَ النّهايةَ المَحتومةَ بنصر الرُّسلِ على أقوامِهم المُنكِرين المُعانِدين؛ ناسبَ أن يذكُرَ في هذه الآية أنّ في هذهِ القصصِ عِبرةً لمَن يتفكَّرُ بها، وأنّ ما وردَ فيها ليس حديثًا كأحاديث القاصّينَ الّذين يَرْوونَ من خيالاتِهم ما شاؤوا، إنّما هو ما وقعَ فعلًا على مدى تاريخ الأمم. وتُمثِّلُ هذه الآيةُ آخرَ السّورة، وهي مَردودةٌ على مَطلعِ السّورة في قولهِ تعالى: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٣﴾ [يوسف: 3]. فالآيةُ من باب التَّصدير في ردِّ الأواخرِ على الصّدور، وهي مُناسبةٌ حَسَنةٌ على مستوى السّورة كلِّها.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾: جَذرُ الكلمة (لبب)؛ ولُبّ اللَّوز وغيره ولُبابُه. ومِنَ المَجاز: هو ذو لُبٍّ، وهو من أولي الألباب، وهو لبيبٌ منَ الألبّاء[1]، ولبُّ كلِّ شيءٍ ولُبابُه خالصُه وخيارُه، وقد غلبَ اللُّبُّ على ما يُؤكَلُ داخلُهُ، ويُرمَى خارجُهُ مِنَ الثّمَرِ، وشيءٌ لبابٌ خالصٌ، وهو لبابُ قومِه، وهم لبابُ قومِهم، وهي لبابُ قومِها[2]. والمُراد في الآية

(1) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (لبب).
(2) ابن سيده، المُحكم: (لبب).

من قوله: ﴿لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أصحابُ العقولِ الّتي تُعمِلُ عُقولَها في التَّفكُّر فيما هو نافعٌ لها من هذه القصص العظيمةِ، الّتي ذكرَها القرآنُ الكريمُ، ويأخذون منها العِبرَ والعِظاتِ.

2) ﴿يُفْتَرَىٰ﴾: جذرُ الكلمة هو (فري). والفَرْيُ الشَّقُّ ... وفَرَيتُ الشّيءَ بالسَّيف وبالشَّفرة: قطعتُه، والفَرِيَّةُ: الجَلَبة. وقيل: أفراهُ: شقَّهُ وأفسدَهُ. وفَرَى يَفري فلانٌ الكَذِبَ، إذا اختلقَهُ. والفِريةُ: الكَذِبُ والقَذفُ[1]. والفَري: الأمرُ العَظيمُ في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾ [مريم: 27]. والفريةُ: الكذبُ فَرَى كذبًا فريًا، وافتراهُ: اختلقَهُ، ورجلٌ فَري ومِفْرًى، وإنّه لَقبيحُ الفِرْيَة[2]. وهذا هو المعنى المُرادُ في الآية: أنّ القرآنَ الكريمَ لم يكنْ من أكاذيبِ الأخبارِ الّتي كان النّاسُ يَتناقلونَها بينَهُم، بل هو تصديقٌ لِما جاء من قصصٍ في الكتبِ الإلهيّةِ السّابقةِ.

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

خُتِمَتِ السّورةُ بما يحثُّ على إدراك مَواضِعِ العِبرِ والعِظاتِ المُكتَنَهةِ فيما ورد من قصص الأنبياءِ وأقوامِهم، ثمّ نبّهَ إلى عظيم شأنِ القرآن، وأنّ ما فيه ليس حديثًا كأحاديث القاصّين الّذين يرّوون نَتاجاتِ خيالاتِهم منَ الأباطيل والأساطير؛ بل كتابَ اللّه الّذي جاء مُصدِّقًا لِما كان قبلَهُ من كتبٍ إلهيّةٍ، وفيه تفصيلُ كلِّ شيءٍ؛ إذ يحتاجُهُ البشرُ في إصلاح النّفوسِ وتنظيمِ الأحوالِ، في الدّنيا والآخرة، ومَنِ التزمَ هديَهُ وشرعَهُ كانَ له هُدًى ورحمةً.

القرآنُ كتابُ هدايةٍ واعتبارٍ لا كتابُ حِكايةٍ واجترارٍ

العِبرةُ المُستفادةُ منَ القصّةِ:

وجهةُ الاعتبار بقصّة يوسفَ ﷺ؛ أنّ الّذي قَدِرَ على إنجاء يوسفَ بعد إلقائه في الجُبّ، وإعلاءِ أمرِه بعد وضعِه في السِّجن،

اللهُ قادرٌ على إعزاز محمّدٍ ﷺ وإظهارِ دينِه

(1) الخليل، العين: (فري).
(2) ابن سيده، المُحكم: (فري).

والتَّمكينِ له في الأرض من بعد الحبس الطَّويلِ، وتمليكِه مِصرَ بعد أن بيعَ بالثَّمن البَخسِ، وإعزازِه على مَن قَصَدَهُ بالسّوء مِن إخوتِه، وجمْعِ شملِهِ بأبويه وبهِم بعد المُدّة والزّمن الطّويل؛ قادرٌ على إعزازِ محمّدٍ ﷺ، وإعلاءِ كلمتِه، وإظهارِ دينِه، وإخراجِه من بين أظهرِكُم، وإظهارِه عليكم، وتمكينِه في البلاد، وتأييدِه بالجنّد والرّجال والأتباع والأعوان. وإنّ الإخبارَ بهذه القصّةِ جارٍ مَجرَى الإخبارِ عنِ الغيوب، فكانَت مُعجزةً لمحمّدٍ ﷺ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

بلاغةُ التّذييلِ للسّابق:

طلبُ العِبرةِ مَسلكُ أولي الألبابِ

نُزّلَتِ الآيةُ مَنزلةَ التّذييلِ للجُملِ المُستَطرَدِ بها لقصدِ الاعتبارِ بالقصّةِ ابتداءً من قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يوسف: 103][2]؛ إذ جاءَتِ الآيةُ ببيانِ طلبِ العِبرَةِ عند أولي الألبابِ ممّا ذُكِرَ من أخبارِ الرّسُلِ وأقوامِهم.

بَلاغةُ التَّصديرِ:

ربطُ آخرِ السّورةِ بأوّلِها دليلُ ترابُطِ المَقاصدِ وتجاذُبِ الغاياتِ

رُدَّ لفظُ القَصصِ في آخرِ السّورةِ ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ﴾ على أوّلِها في قولِه تعالى: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ [يوسف: 3]؛ وهذا ما يُسمّى بفنّ التَّصدير[3]. وفائدةُ ذلك العَوْدُ بالفكرِ المُتدبِّرِ إلى أوّلِ السّورة، ليُعلمَ أنّ أحسنَ القَصصِ الّتي يقصُّها القرآنُ على رسولِه هي أصدقُ القَصصِ الّتي فيها العِبرَةُ والعِظاتُ، وقولِه: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ﴾؛ أي: الخبرِ العظيمِ الّذي تُلي عليكَ تَتَبُّعًا لأخبارِ الرُّسلِ الّذين طالَ بهِم البلاءُ حتّى استَيأسوا، من نوحٍ إلى يوسفَ

(1) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 14/142.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/71.
(3) التّصديرُ هو أن تكونَ تلك اللّفظةُ بعينِها تقدّمَت في أوّلِ الآيةِ، وتُسمّى أيضًا ردَّ العَجُزِ على الصّدر. يُنظر: السّيوطيّ، الإتقان: 3/354.

ومَن بعدَهُ[1]؛ ﴿عِبْرَةٌ﴾ لمَن جاءَ بعدَهم، وصَدَّقَ بما قصصْنا عليك، وآمنَ بالكتاب.

عِلَّةُ فصْلِ الآيةِ:

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾ عن سابقِه لكمالِ الاتّصالِ بين الآيتين؛ فالجملتان خبريّتان، وقد تناولتا معنًى واحدًا؛ فكانَتِ الجملةُ الثّانيةُ بمنزلة البدل منَ الجملةِ الأولى؛ إذ تناولَتِ الآيةُ السّابقةُ الدّعوةَ إلى السّيرِ في الأرض، وأخذِ العِبرةِ في هذه الحياة من قَصص الأقوامِ السّابقةِ، وأتَت هذه الآيةُ لِتُبيّنَ الحقيقةَ نفسَها، وتؤكّدَها بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾.

تأكيدُ مَقاصِدِ النَّظرِ في الأمم السّابقةِ بمَقاصِدِ العِبرِ في الرّسلِ السّابقةِ

غَرَضُ التَّوكيدِ:

في قولِه تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾ تأكيدُ الجملةِ بـ (قد) واللّام الموطئة للقسَم للتّحقيق[2]. وقد أفاد هذا التّوكيدُ أهمّيّةَ تلك القَصص، وما تؤدّيه مِنَ العِبرةِ لمَن يَعتبرُ، وهُم أصحابُ العقول القابلةِ للنّصيحة، المُتفاعِلةِ مع قصصِ الأنبياءِ، وما حَدَثَ لأقوامِهم. وغرضُ التّوكيد تثويرُ الأذهان وتحريكُ العقولِ؛ للاعتبار والمُفاتَشَة عن مَوضِع العِبرةِ.

تحريكُ الأذهانِ وإيقادُ الأفئدةِ في التّفتيشِ عن مَوضِعِ العِبرَةِ

نُكتةُ التَّعبيرِ بالمصدرِ مع إضافتِه إلى الضّميرِ:

القَصَصُ مَصدرُ قصَّ الخبرَ؛ إذا حدَّثَ به؛ والمقصودُ به في قوله: ﴿فِي قَصَصِهِمْ﴾: "أي: قصصِ يوسفَ وإخوتِه وأبيه وخبرِهم، وقُرِئَ شاذًّا بكسر القافِ جمعُ قصّةٍ؛ أي: قصصِ الأنبياءِ وأممِهم"[3]؛ والإضافةُ إلى ضمير (هم)؛ أي: قصص الأنبياءِ الّتي وردَت في القرآن الكريم، ومنها: قصّةُ يوسفَ ﷺ الّتي جاء تفصيلُها في سورة يوسفَ، باعتبارها الأنموذجَ لذلك القَصص، فالقَصصُ

قَصصُ الرّسلِ هي ميدانُ تَفكّرِ العقولِ السّليمةِ الباحثةِ عنِ الحقيقةِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/116.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/71.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 14/142.

ميدانُ تفكُّرِ العقولِ السَّليمةِ الباحثةِ عنِ الحقيقة، والضّميرُ في ﴿قَصَصِهِمْ﴾ عائدٌ على الرّسلِ، أو على يوسفَ وأبَوَيه وإخوَتِه، أو عليهم، وعلى الرّسُلِ ثلاثةُ أقوالٍ[1]. وجميعُ هذه الحالات فيها مِنَ العِبرةِ ما يكفي لاتّعاظ الأمم بها.

دَلالةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيَّة المجازيَّة:

العِبرَةُ مُتضمَّنةٌ في قَصصِهم كما يوضَعُ الشَّيءُ في وِعائِه

حرفُ ﴿فِي﴾ في قولِه تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾ ظرفيٌّ مجازيٌّ، وآثرَ النّظمُ الكريمُ استعمالَه دون حرف الباء، فلم يقُلْ: (بقصصهم)؛ لجعلِ العِبرَةِ مُتضمَّنةً في قَصصِهم كما يوضَعُ الشَّيءُ في وعائِه، فمَن أراد العِبرَةَ فلا بُدَّ له مِنَ التَّدبُّر في قصصِهم والسَّيرِ في الأرض والنّظرِ في آثارِهم. ومعنى كونِ العِبرَةِ في قَصصِهم أنَّها مَظروفَةٌ فيه ظَرفيّةً مَجازيّةً، وهي ظرفيّةُ المَدلولِ في الدَّليل، فهي قارَّةٌ في قصصِهم، سواءٌ اعتَبَرَ بها مَن وُفِّقَ للاعتبار أم لم يَعتَبِرْ لها بعضُ النّاسِ[2].

فائِدةُ انتقاءِ لفظِ ﴿عِبْرَةٌ﴾ دون (عِظَة):

العِبرَةُ وسيلةٌ موصِلةٌ للغاية، وهي الاتّعاظُ

في قولِه تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾؛ والعِبرَةُ هي عِظَةٌ عظيمةٌ وذكرى شريفةٌ[3]. والعِبرَةُ: اسمُ مصدرٍ للاعتبار، وهو التَّوصُّلُ بِمَعرفةِ المُشاهَدِ المَعلومِ إلى مَعرفةِ الغائِبِ، وتُطلَقُ العِبرَةُ على ما يَحصُلُ به الاعتبارُ المذكورُ من إطلاقِ المصدرِ على المفعولِ كما هنا[4]. وذلك على خلافِ العِظةِ الّتي هي نتيجةٌ للعِبرَة، وتأتي مُباشرةً دون التَّفكُّر، ودون تلك الوسائطِ الفكريّةِ الّتي تكون سببًا للوقوف أمام تلك الأحداث والتّأثُّر بها. فالعاقلُ مَنِ اتّعظَ بتلك العِبَر، فمَنِ اعتبرَ فقد اتَّعظَ، فَذَكَرَ الوسيلةَ الموصِلَةَ للغاية.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/348.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/71.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/116.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/71.

نُكتةُ تَنكيرِ ﴿عِبۡرَةٞ﴾:

قَصصُ الأنبياء مناهجُ وقواعدُ تصويبٍ لحياة الأممِ والشّعوبِ

أفادَ تنكيرُ ﴿عِبۡرَةٞ﴾ التَّفخيمَ والتّعظيمَ؛ إذ ما أعظمَ أن تُؤخَذَ العِبَرُ من حوادث الماضي، وما أفخَمَ أن تكونَ من أحوال قصص الأنبياءِ، فيكونُ لكلّ نبيٍّ قصّةٌ فيها مِنَ العِبَرِ والعِظاتِ الّتي تستحقُّ أن تكونَ جميعًا مَنهجًا مُجتمَعيًّا، وقواعدَ تصويبٍ لِمَسيرة الحياة، فهي عِبرةٌ عظيمةٌ، ودلَّ على ذلك سياقُ الآيةِ.

معنَى (اللّامِ) ودلالتُها:

معنى اللّام في قولِه تعالى: ﴿عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾ الاختصاصُ؛ فقد اختُصَّ أولو الألباب بتلك العِبرةِ العظيمة؛ لأنَّ عقولَهم قد ميّزَتهُم من غيرِهم؛ أنّها تَستمدُّ من تلك القصصِ الدّروسَ الثّمينةَ الّتي هي بمنزلة ناصحٍ أمينٍ لهم.

تَوجيهُ المخصوصِ بالذِّكرِ:

أولــو الألــبــابِ هُـــمُ الّــذيــن يَـجـمـعـون إلى العقولِ الصّافيةِ الـسّـلـوكـيّـاتِ الرّاقيةَ

خَصَّتِ الآيةُ بالذّكر (أولي الألباب) دونَ أولي النّهى وأصحابِ العقول ومُرادفاتِها. والألبابُ: جمعُ اللّبِّ. واللُّبابُ: الخالصُ من كلّ شيءٍ، ورجلٌ مَلبوبٌ؛ أي: موصوفٌ باللّبّ. وقد اختُصّ اللُّبُّ؛ لأنَّ لُبَّ الرَّجلِ ما جُعِلَ في قلبه منَ العَقل[1]، ولأنّ منظومةَ التَّفكير تراوح بين القَلب والعَقل، فيكونُ اللُّبُّ ما يراه فيتفكَّرُ به فيعقلُهُ، ويعتقدُ به فيؤثّرُ ذلك في قلبه، فيأخذُ ممّا عَلِمَ العِبرةَ والعِظَةَ. وهؤلاء قلّةٌ في النّاس؛ إذ يجبُ أن يجمعوا إلى العلم سلوكًا، وإلى السّلوك إحسانًا ومُصابرةً، ولذلك فقد اختصَّ أولي الألباب دونَ غيرِهم، فلم يقُلْ: لأولي النُّهى، أو لِلمُؤمنين، أو لِلمتَّقين.

نُكتةُ جمعِ لفظِ ﴿ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾:

يقول الرافعي: إنّك ترى بعضَ الألفاظِ لم يأتِ فيه إلا مجموعًا

(1) الخليل، العين: (لب).

ولم يُستعمل منه صيغةُ المفردِ، فإذا احتاج إلى هذه الصّيغةِ استعمل مرادفَها: كلفظة (اللبّ)؛ فإنّها لم ترد إلا مجموعةً، بل جاء في مكانها (القلب)، وذلك لأنّ لفظَ الباء شديدٌ مجتمعٌ، ولا يفضي إلى هذه الشدّةِ إلا منَ اللّام الشّديدة المُسترخيةِ، فلمّا لم يكن ثَمَّ فصلٌ بين الحرفين يتهيّأُ معه هذا الانتقالُ على نسبة بين الرخاوةِ والشّدةِ؛ تُحسّنُ اللّفظةَ مهما كانت حركةُ الإعراب فيها؛ نصبًا أو رفعًا، أو جرًّا؛ فأسقطها من نظمِه بتّةَ، على سَعة ما بين أوّله وآخره، ولو حَسُنت على وجه من تلك الوجوه لجاء بها حسنةً رائعةً[1]. فضلًا عن أنّ في جمعها دعوةً للتّفكير الجمعيِّ في سبيل الوصولِ إلى الحقائق، لذا جاءت في سياقاتٍ تدعو إلى هذا العمل الجمعيِّ في سبيل الوصول إلى الثّمرةِ.

دعوةٌ إلى التّفكيرِ الجمعيِّ في سبيل الوصولِ إلى الحقائقِ

مَوقِعُ الجملةِ مِنَ السّابق:

جملةُ ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ إلى آخرِها تعليلٌ لجملةِ ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾؛ لأنَّ ذلك القَصَصَ خبرُ صدقٍ مُطابقٌ للواقع، وما هو بقصّةٍ مُختَرَعةٍ. ووَجهُ التّعليلِ أنّ الاعتبارَ بالقصّةِ لا يحصُلُ إلّا إذا كانَت خبرًا عن أمرٍ وقَعَ؛ لأنّ تَرتُّبَ الآثارِ على الواقعاتِ تَرَتُّبٌ طبيعيٌّ، فمِن شأنِها أن تَترتَّبَ أمثالُها على أمثالِها كلّما حَصَلَت في الواقع، ولأنّ حُصولَها مُمكِنٌ؛ إذِ الخارجُ لا يقعُ فيه المُحالُ ولا النّادرُ، وذلك بخلافِ القِصصِ المَوضوعةِ بالخَيالِ والتّكاذيبِ؛ فإنَّها لا يَحصُلُ بها اعتبارٌ؛ لاستبعادِ السّامعِ وقوعَها؛ لأنّ أمثالَها لا يُعهَدُ، فالسّامِعُ يتلقّاها تَلَقّي الفُكاهاتِ والخَيالاتِ، ولا يَتَهيَّأُ للاعتبارِ بها[2].

الـقَـصَـصُ خَـبَرُ صِـدقٍ مُـطابِـقٌ للواقعِ

(1) الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة، ص: 160.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/71 - 72.

سِرُّ العُدولِ بتَسميةِ القَصصِ بالحديثِ:

في قولِه تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ هذه الآيةُ ناظرةٌ إلى قوله تعالى في أوّل السّورة ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: 3]، فلمّا سمّاهُ اللّه أحسنَ القَصصِ في أوّل السّورة؛ نفى عنه الافتراءَ في هذه الآيةِ؛ تعريضًا بمَن أنكروا القرآنَ، وادّعوا بأنَّه مُفترًى؛ وسمَّى القصصَ بالحديث المُفترى؛ لأنّ النّاسَ كانوا يَستأنسونَ لسماع أحاديثِ القاصّين، فيزوّونَ لهم منَ الخيال والأكاذيب والمُبالغات والخُرافات، فالسّامِعُ يتلقّاها أحاديثَ مُجرَّدةً عن أخذِ العِبرةِ والعِظةِ منها، إنّما هي للتّسامُرِ وقضاءِ الأوقات؛ أي: ما كان حديثًا مُفترًى كما تظنّون، أو كما اعتَدتُم من سماع القصصِ بهذا الاعتبار.

الآيـةُ تعريضٌ بمَن يَسمعون الأحاديثَ المُفتراةَ فيُضيّعون أوقاتَهم هذرًا

ومجيء كلمة ﴿حَدِيثًا﴾ بصيغة التّنكير ليُفيد هنا تعظيمَ القرآن وتفخيم شأنه، من جهة تنقيص قدر أيّ حديث مفترًى.

نُكتةُ التّعبيرِ بالمضارع المبنيّ للمفعولِ:

في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾؛ أفاد المُضارعُ هُنا التَّجدُّدَ مع الزّمان، فالقصصُ يستمرُّ تداولُها بين النّاس على مدى الأجيال المُتعاقِبةِ، فهذه القصصُ لم تكنْ كحديثٍ يُفترَى ممّا يخترعُه القاصّون من أساطيرِ الأوّلين، ولكنّه حقيقةٌ وصدقٌ. وتعبيرُهُ بالمفعول ﴿يُفْتَرَىٰ﴾؛ لتهوين شأنِ تلك القصصِ الّتي تُفترَى، ونبذِ ذكر القاصّين لتلك الأحاديثِ الكاذبةِ؛ تحقيرًا لشأن أولئك القاصّينَ الّذين يَكذبونَ على النّاس؛ ليتكسَّبوا من قصصِهم أجرًا قليلًا، وهذا مُناسِبٌ لِما ذُكِرَ قبلُ في بيانِ أنّ الرّسولَ لا يسألُ النّاسَ على طلب الهدايةِ لهم أجرًا؛ فقال: ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

تـهـويـنُ شـأنِ مـا يُـفـتَرى من أساطيرِ الأوّلين

بَلاغةُ الاسْتدراكِ:

في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ استدراكٌ؛

لبيانِ أنَّ القرآنَ جاء به من لم يقرأِ الكتبَ، ولا تَتَلمَذَ لأحَدٍ، ولا خالطَ العُلماءَ من بني إسرائيلَ، فمُحالٌ أن يفتريَ هذه القصّةَ؛ بحيث تُطابِقُ ما وردَ في التّوراة من غير تفاوتٍ[1]. فتكون فائدةُ الاستدراك هنا الإخبارَ بالغيب المُكتَنَهِ في تلك القصص، وبيانَ علمِ اللّه تعالى، وقدرتِه وتصرّفِه في الأشياء على ما لا يخطرُ على بالٍ، ولا يجولُ في فكرٍ.

ما كان قَصصُ القرآن حديثًا مُختلَقًا، بل هو من عندِ ربِّ البشرِ

ويمكنُ أن يعودَ المعنَى إلى القرآن؛ أي: ما كان القرآنُ الّذي تضمَّنَ قصصَ يوسفَ ﷺ وغيرِه حديثًا يُختلَقُ، ولكنْ كانَ تصديقَ الكتبِ الإلهيّةِ السّابقةِ لنزولِه[2]. فأفادَ هنا الاستدراكُ أن تُختمَ السّورةُ، وما في قصصِها مِنَ العِبرَةِ والعِظاتِ؛ بالعَوْدِ إلى القرآن الكريم، فكانَ كلُّ ما ذُكِرَ آنفًا لم يُذكَرْ إلّا لغايةِ بيانِ أنّ القرآنَ الكريمَ جاء تصديقًا لِما سَبَقَه من رِسالاتِ الرُّسل.

ما كان القرآنُ حديثًا يُختلَقُ، ولكنّه تصديقٌ للكُتبِ الإلهيّةِ السّابقةِ

بَلاغةُ الكناية:

في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ مقصودٌ به؛ أنّ القرآنَ جاء تصديقًا للكتب الإلهيّةِ السّابقةِ، وضميرُ ﴿بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ عائدٌ إلى القرآن الّذي من جملتِه هذه القِصصُ[3]. فيكونُ معنى ﴿تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ كنايةً عن تصديقِه للكتب الإلهيّةِ، وهي الزّبورُ والتّوراةُ والإنجيلُ؛ إذ تضمَّنَ إعجازًا عن غيب الماضي الّذي هو أخبارُ الأمم السّابقةِ مع أُمّية النّبيِّ ﷺ.

القرآنُ تضمَّنَ إعجازًا قَصصيًّا غيبيًّا مُصدِّقًا لقِصصِ السّابقينَ

بَراعةُ الانتقالِ من خصوصِ التّصديقِ إلى عمومِ التّفصيلِ:

قولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾؛ أي: إنّ ما جاء به رسولُ اللّه ﷺ، هو تصديقٌ لِما سبقَهُ مِنَ الكُتُب والرّسالات الّتي جاءَت بها الرُّسلُ؛ لأنّه قد جاء ذكرُها في القرآن الكريم، فمِن أركان

الانتقالُ مِنَ التّصديقِ والإيمانِ إلى روايةِ قصصِ الاعتبارِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/337.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/348.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/72.

الإيمان؛ أن تؤمنَ برُسل الله وبكُتبه. ثمّ انتقلَ إلى مسألة التّفصيلِ، فقال: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾، فذَكَرَ الأقوامَ، وذَكَرَ ما حلَّ بهم بعد أن أعرضوا وأصرّوا على الكفر، فكانوا عِبرةً وآيةً وعِظةً لأولي الألباب، فانتقلَ منَ الخاصِّ إلى العامِّ، انتقلَ منَ التّصديق والإيمان إلى رواية أحداثِ القصصِ الّتي كان فيها للمُؤمنين عِبرَةٌ. هذا فضلًا عنِ المعنى الشّاملِ لقوله: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾؛ أي: تفصيلَ ما جاء في القرآن الكريم منَ الإيمانِ والشّريعةِ والقصصِ والأمثالِ والحِكَمِ والعلومِ وغيرها. ويكونُ قولُه: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ واقعًا ليوسفَ مع أبَوَيهِ وإخوَتِه، إنْ كان الضّميرُ عائدًا على قصص يوسفَ، أو كلِّ شيءٍ ممّا يُحتاجُ إلى تفصيلِه في الشّريعة إنْ عادَ على القرآن[1].

دَلالةُ إضافةِ التَّفصيلِ لألفاظِ العُمومِ:

القُرآنُ الكريمُ تفصيلٌ للقيمِ والإرشاداتِ والهِداياتِ

قولُهُ: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾؛ والتّفصيلُ: التَّبيينُ. والمُرادُ بـ ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ الأشياءُ الكثيرةُ ممّا يَرجعُ إلى الاعتبار بالقصصِ. وإطلاقُ الكلِّ على الكَثرةِ وردَ مثالُهُ في قوله: ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ [الأنعام: 25][2]. فـ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ يُرادُ بها الكثرةُ والمُبالغةُ لِما تضمَّنَته تلك القصصُ مِنَ العِبَرِ العَظيمةِ والعِظاتِ الكَريمةِ. فإضافةُ التَّفصيل لألفاظِ العُموم ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ دون أن يُقالَ: (وتفصيل القصص)؛ أفادَ تفصيلَ القصصِ وغيرِها من قضايا الإيمان، والشّريعة، وتربية النّفس، وإشارات العلوم، وغيرِها، وقد كان مُعجِزًا في كلّ ذلك ومُفصِّلًا له، فيدخلُ فيه جميعُ القيمِ والهداياتِ والفوائدِ والإشاراتِ والإرشاداتِ.

سِرُّ عطْفِ النّكراتِ ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ على المَعارفِ:

الهُدى الّذي في القَصصِ؛ بمعنى: العِبَرِ الباعثةِ على الإيمان

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/348.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/72.

والتّقوى، بمشاهَدَةِ ما جاء منَ الأدلّة في أثناء القَصص، وعلى أنّ التّقوى هي أساسُ الخيرِ في الدّنيا والآخرة، وكذلك الرّحمةُ؛ فإنّ في قَصَصِ أهلِ الفَضلِ دلالةً على رحمة الله لهم وعنايتِهِ بهم، وذلك رحمةٌ للمُؤمنينَ، فَتَصلُحُ أحوالُهم، ويَكونونَ في اطمئنانِ بالٍ، فهي رحمةٌ مِنَ اللّه بهِم في الحياة الدّنيا، وسببٌ لرحمتِهِ تعالى إيّاهُم في الآخرة[1].

في قصص أهل الفضلِ هدايةٌ للمُؤمنين ورحمةٌ واطمئنانٌ

نُكتةُ تقديمِ الهُدى على الرّحمةِ:

قدَّمَ الهدى على الرّحمة في قولِهِ تعالى: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾؛ فالقرآنُ الكريمُ جاءَ بالهداية للنّاسِ كافّةً؛ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: 28]، ولا تكونُ الهدايةُ إلّا باتّباع الرّسولِ فيما أُنزِلَ عليه منَ الإيمان والتّشريع، فمَن آمنَ فقدِ اهتدى، ومنِ اهتدى فقد أصابَته رحمةُ اللّه تعالى، فتكونُ الرّحمةُ نتيجةً للهداية الرّبّانيّةِ في الإيمان والاتّباع، فالتّقديمُ من باب تقديمِ السّببِ على المُسَبَّبِ.

مَنْ آمنَ فقدِ اهتدى، ومنِ اهتدى أصابَته رحمةُ الله تعالى

بَراعةُ التّرقّي في التّرتيبِ:

في الآية ما هو من قبيل التّرقّي في ترتيب المعاني؛ إذ بدأ بذكر التّصديقِ؛ فالقرآنُ الكريمُ هو استمرارٌ لِما جاءَت به الكتبُ السّماويّةُ مِنَ الدّين والإيمان، ثمّ إنّ القرآنَ الكريمَ أتى بالشّريعة التّفصيليّة الّتي ليسَت على ما جاءَت به شرائعُ الرُّسل السّابقينَ، فقال: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾؛ فيُفهَمُ تفصيلُ كلِّ شيءٍ ممّا يحتاجُه النّاسُ مِنَ الشّرع في عباداتِهم وحياتِهم، وفي التزام ذلك الإيمان بأركانه الّتي جاء بها القرآنُ، وجاءَت بها الرِّسالاتُ السّابقةُ، وتطبيقِ الشّرعِ الّذي جاء به القرآنُ الكريمُ؛ تفصيلًا لكلِّ قضيّةٍ ومَسألةٍ، يُضافُ إليها سنّةُ رسولِ اللّه ﷺ، فيكونُ صاحبُ هذا

تَصديقُ السّابقِ، فتفصيلُ القادمِ، فهِدايةُ العبادِ، فرحمةُ المُهتدين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/72 - 73.

النّهجِ الرّبّانيِّ المستقيمِ قدِ اهتدى، ومَنِ اهتدى فقد حفّتهُ رحماتُ اللّه تعالى، فالتّرتيبُ بذكرِ التّصديقِ للسّابق، فالتّفصيلُ للقادم، فالهُدى للعباد، فالرّحمةُ بمَنِ اهتدى، وهو ترتيبٌ بديعٌ.

نُكتةُ تنكير ﴿لِّقَوْمٍ﴾:

قوله: ﴿لِّقَوْمٍ﴾: أفاد تنكير هذه اللّفظة هنا التّعميمَ والتّفخيمَ لشأن هؤلاء القوم.

نُكتةُ ذكرِ ﴿لِّقَوْمٍ﴾:

رابطةُ المجتمع الإيمانيّ عظيمةٌ مُؤثّرةٌ

آثرَ النّظمُ الكريمُ الإتيانَ بلفظ قوم في قوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ دونَ أن يقولَ: (للمؤمنين)؛ كنايةً عنِ التّآزر الإيمانيِّ في المُجتمع، فهُم أهلُ دينٍ وإيمانٍ، يتناصحونَ بينهم، يؤيّدُ بعضُهم بعضًا على الإيمان، ويُعينُ بعضُهم بعضًا على الثّبات وأخذِ العِبرةِ من هذه القصص العظيمةِ، ولو قالَ لِلمُؤمنين لَما أفادَ هذه المعاني. وفيه إشارةٌ إلى أنَّ المُؤمنين إنّما يقومونَ بمثلِ هذا، فلا قوامَةَ لَهم إنْ لم يجتمعوا قائمينَ على أخذِ العِبرةِ والعِظةِ.

تَوجيهُ تَخصيصِ الإيمان بالذِّكرِ:

الإيمانُ والدّعوةُ إليه هو محورُ حديثِ هذه السّورة

في قولهِ تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ذَكَرَ الإيمانَ دونَ التّقوى؛ بسببِ ما سبق من حديث الإيمان، وتصديقِ ما جاء في الكتب السّماويّة، مِنَ الإيمان باللّه والرّسل والرّسالات، فخُتِمَتِ الآيةُ بالتذييل بذكر الإيمانِ والمُؤمنين.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

العِبَرةُ والعِظةُ:

العِظةُ تذكيرٌ بالشّيء، والعِبرَةُ دلالةٌ عليه

(العِبرَةُ): هي الدّلالةُ بالشّيء على مثله للعِظة والاعتبار، وهي الحالةُ الّتي يُتوَصَّلُ بها من مَعرفة المُشاهَدِ إلى ما ليس بمُشاهَدٍ، كما ورد هُنا في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾. أمّا معنى (العِظَة) والمَوعظة فهو النّصحُ والتّذكيرُ بالعواقب. ولعلّ

المَوعظةَ تذكيرٌ بالخير والشَّرِّ، والعِظةَ تذكيرٌ بالخير، وما يَرِقُّ له القلبُ.

الألبابُ والنُّهَى:

النُّهى هو النِّهايةُ في المَعارف، ويجوز أن يُقالَ: إنّها تفيدُ أنّ الموصوفَ بها يصلحُ أن يُنتهى إلى رأيه، وسُمّي الغديرُ نهيًا؛ لأنَّ السَّيلَ ينتهي إليه، والتّنهيةُ المكانُ الّذي ينتهي إليه السَّيلُ، والجمع التَّناهي[1]. أمّا الألبابُ فلُبُّ كلِّ شيءٍ خالصُه وخيارُه، وشيءٌ لبابٌ خالِصٌ[2]. والمُرادُ في الآية من قوله: ﴿لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ أي: أصحابُ العقولِ النّاضجةِ الّتي تقدِّمُ خلاصةَ فكرِها فيما هو حَسَنٌ، وتُعمِلُ عُقولَها في التَّفكُّر والتَّدبُّر، لِتصلَ إلى عين الحقيقةِ.

النُّهَى للمعارفِ، والألبابُ لخالصِ الشَّيءِ

الافتراءُ والكذبُ:

الكذبُ: هو عدمُ مُطابقةِ الخبرِ للواقع، والافتراءُ أخصُّ منه؛ لأنَّه الكذبُ في حقِّ الغير بما لا يرتضيه، بخلاف الكذبِ فإنّه قد يكونُ في حقِّ المُتكلِّم نفسِه، ولذا يُقالُ لمَن قال: (فعلتُ كذا، ولم أفعلْ كذا) مع عدم صدقِه في ذلك: هو كاذبٌ، ولا يُقالُ: هو مُفترٍ، وكذا مَن مَدَحَ أحدًا بما ليس فيه، يُقالُ: إنَّه كاذبٌ في وصفِه، ولا يُقالُ: هو مُفترٍ؛ لأنَّ في ذلك ممّا يرتضيه المَقولُ فيه غالبًا. وقال سبحانَه حكايةً عنِ الكفّار: ﴿ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: 21]؛ لزعمِهم أنَّه أتاهُم بما لا يرتضيه اللّه سبحانه مع نسبتِه إليه. وقد يحسنُ الكَذِبُ على بعض الوجوه دونَ الافتراء، كالكذبِ في الحرب، وإصلاحِ ذاتِ البَينِ[3].

الكذبُ عامٌّ، والافتراءُ أخصُّ منه؛ فهو كذِبٌ في حقّ الغير

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 552.
(2) ابن سيده، المُحكم: (لبب).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 449 - 450.

سُورَةُ الرَّعْدِ

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 23 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-20-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 23 : المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-20-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8086351 بتاريخ 2024/02/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»